

جدل الشاي والقهوة.. الفلسفة تجلس على الكافي شوب

أحدهما نخبوي والآخر شعبي.. مشروبان لكل منهما وجهه الخفي

اقتربت القهوة منذ ظهورها بأبعاد ثقافية كثيرة، حتى أنها باتت مكونا ثقافيا أساسيا، وهناك مشروب آخر هو الشاي، نجح في أن يكون أقل نخبوية من القهوة، وأن يكون شعبيا بشكل كبير، لكن بين هذين المشروبين سمات كثيرة مشتركة، ونقاط اختلاف كثيرة، نفاها من الباب الثقافي في كليهما.



ماهر عبدالمحسن
كاتب مصري

المشروبات الساخنة تلعب دورا مهما في حياة الإنسان، خاصة في فصل الشتاء ولياليه الباردة. كما لا يمكن لأحد أن ينكر الفائدة الصحية للمشروبات الساخنة مثل البنسون والحلبة والشاي الأخضر. لكن تظل للشاي والقهوة مكانة خاصة في قلوب الناس، لأنهما المشروبان الأكثر طلبا على مدار اليوم الواحد، وإن ارتبط الشاي بالأكل والأعمال البدوية، وارتبطت القهوة بالتدخين والأعمال الذهنية.

ولأن الماء هو العنصر المشترك بين الشاي والقهوة، فينبغي أن نتساءل عن مدى أهمية الماء الساخن. وفي هذا السياق، نجد للماء الساخن أهمية كبيرة في الثقافة الصينية. فنادرا ما تجد الماء البارد في المطاعم، كما أنه من الصعب أن تعثر على مواطن صيني لا يحمل ترمسا في يديه.

وقد أصبح شرب الماء الساخن تفضيلا واسع النطاق بين الصينيين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية، فقد رجح القوميون لها في كتابهم الإرشادي عام 1934 "أساسيات حركة الحياة الجديدة"، وأطلقت الحكومة الشيوعية حملتها عام 1952 للصحة الوطنية، من خلال ملصقات معلقة في المدارس تعلن أن "الأطفال يجب أن يزرعوا عادة شرب الماء المغلي ثلاث مرات في اليوم".

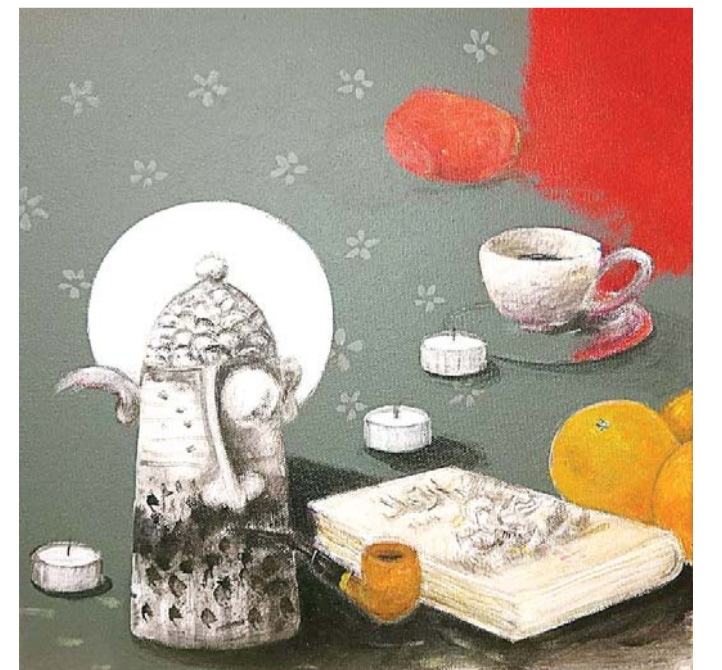
إذا كان الشاي يرتبط بالطقوس الاجتماعية والمهنية، فإن القهوة ترتبط أكثر بالخبرات الفردية والأعمال الذهنية

غير أن المسألة الأكثر أهمية هي أن وراء عادة شرب الماء الساخن لدى الصينيين، فلسفة كبرى تنتمي للطب الصيني التقليدي. ووفقا لهذه الفلسفة يتكون جسم الإنسان من عناصر "يين" وعناصر "يانج"، ويقي الشخص سليما طالما هناك توازن بين الين واليانج.

فإذا أصبح اليانج قويا ارتفعت درجة الحرارة الداخلية، ويصبح هذا الشخص عرضة للأمراض، ولكي يتحقق التوازن ويستعيد صحته، فعليه تناول الأطعمة والمشروبات من عناصر الين، وعلى رأسها الماء الساخن.

الشاي والماء

إذا انتقلنا إلى الشاي، على مستوى التفكير، فربما كان كتاب الإنجليزي توني جيبيلي "فلسفة الشاي" هو الأكثر ذيوغا، لكنه في الحقيقة لم يكن كتابا



القهوة ترتبط بالخرافة والميتافيزيقا (لوحة للفنان بطرس المعري)



المشروب الساخن مليء بإيحاءات ثقافية (لوحة للفنان بطرس المعري)

على أن يظهرها في الصور على هذه الهيئة. والحقيقة أن علاقة القهوة بالثقافة والفكر والأدب ليست ببعيدة، فكاتبو السير الذاتية يذكرون أن فولتير كان يشرب في اليوم الواحد ما بين 40 و50 فنجان قهوة بالشكولاتة، وأن إيمانويل كانط ارتبط بالقهوة في أيامه الأخيرة، وكانت مشروبه المفضل الذي لا يمكن أن يستغني عنه كل مساء، كما أن سورين كيركجارد كانت له طقوس خاصة في تحضير القهوة تعتمد على مزجها بهرم كبير من السكر فيما يشبه لعب الأطفال.

اختلافات متعددة

في كل الأحوال، قد يكون للقهوة دور في اعتدال المزاج، لكن من المؤكد أن هذا الدور ليس بالأهمية أو الظهور الكبيرة، بحيث تجعلنا نعزى إليه إبداعات هؤلاء العباقرة.

إلى القهوة مكان يجتمع فيه المثقفون مثل "قهوة ريش" بالقاهرة، وكمثل في اللغاليات الثقافية مثل "المقهى الثقافي" بمعرض القاهرة الدولي للكتاب والمقهى الفلسفي في الجزائر، والكتبات التي تحمل اسم "كافي بوك"، وهي تعرض الكتب وتقدم المشروبات، ودلالة هذه الظاهرة تكمن في تلك الصلة الوثيقة بين القهوة والثقافة، حقيقة ورمزا. فالقهوة كمشروب ترتبط بخبرة الكاتب وإبداعاته، والقهوة كمكان ترتبط بالجمهور والمناقشات الثقافية، لأن المقهى، على الحقيقة، تتميز بالاجتماع والسمر والدفع الإنساني. ولعلك تشعر تجاه هذه الظاهرة وكان القهوة، النخبوية بطبيعتها، تكافح من أجل أن تكون اجتماعية، في محاولة لكسب أرض جديدة في تصورها الشريف مع الشاي. في حين أن هذا الأخير لا يشغل نفسه كثيرا بعد أن تربح لنفسه أن يشاركهم همومهم وأفرامهم، وأن يكون واحدا من السلع الأساسية المدعومة في بطاقتهم التموينية.

وبالرغم من هذه الاختلافات المتعددة بين المشروبين الأكثر شعبية ورواجا بين الناس، يظل السر الذي يجمعهما كونهما ينتميان إلى المشروبات الساخنة التي ترتبط في الوعي بتلك الصورة السحرية الجاذبة حول الأبخرة المتصاعدة من كوب ساخن موضوع في طقس شتوي بارد.. إنها الرغبة العارمة في استعادة شيء من الدفء الإنساني المفقود، من خلال سماع أغنية أو قراءة كتاب أو الانتفاخ حول الأسرة، لاستدعاء ذكريات منسية بينما ترتشف كوبا من الشاي أو فنجانا من القهوة.



لكنك في القهوة تجد درجات متعددة وفروقا طفيفة بين كل نوع وآخر، لعل أشهرها، والسادة، وعلى الرجة، والمحبوبة، والمانسو، والزيادة، وهذه الفروق الدقيقة في تحلية البن هي ما يميز القهوة، بالإضافة إلى الكافيين، باعتبارها مشروبا مزاجيا، يرتبط بالتفضيلات ذات الطبيعة الخاصة لكل شارب.

أضف إلى ذلك أنواع القهوة الناتجة من إضافة الحليب والشكولاتة إلى مسحوق البن، وهي عديدة جدا، وأبرزها الإسبريسو، والكابتشينو، والأمريكانو، والتركي، والفرنساوي. وتكتسب القهوة جاذبيتها، وفقا لهذه الأنواع، من رائحة البن ورغوة اللين أو الشكولاتة المضافة. وإذا لم تكن هناك طقوس اجتماعية بارزة لشرب القهوة، إلا أن هناك طقوسا كثيرة تأتي في سياق تحضيرها، وربما كان الشكل التقليدي، الذي ارتبط بـ"الكناكة" و"السرتانية"، هو الأكثر جاذبية وحميمية عن الماكينات الحديثة التي تقدم القهوة سريعة التحضير. فكلما كانت الصناعة يدوية أكثر تجلج البعد الإنساني بنحو أكبر.

خبرة الشرب

إذا رجعنا إلى خبرة الشرب، كفعل إنساني متعدد الأبعاد، فسنجد أن للشاي أبعادا ذهنية تأملية، فيمكنك أن تسمع عبارة "حفلة شاي"، لكن لا يمكن أن تسمع العبارة نفسها حول شرب القهوة التي يغلب عليها البعد الفردي في الأداء والتذوق. ولعل ارتباط القهوة بالمزاج ما يؤكد هذه الفريدة. وربما كان تقديم القهوة السادة في سرادقات العزاء هو الحالة الوحيدة ذات البعد الاجتماعي للقهوة، ولعل في لونها الأسود ومدافها المرما يبرر تقديمها في مناسبات يكملها الحزن. وترتبط القهوة بالخرافة والميتافيزيقا، لأنها تعد واحدة من وسائل قراءة الطالع ومعرفة الغيب، وذلك أن الكثير من المثقفين يحرصون

ولزوجها المتعب القادم من العمل، ولضيفها المقربين الذين يزورونها في الأعياد والمناسبات. وهو مادة للضحك في المسرح كما في "المترجون" لجورج سيدهم، وهو إيماءة جنسية في السينما كما في "غاوى مشاكل" لعادل إمام. وهو المشروب الاقتصادي الذي يمكنك أن تطلبه في أي مكان وتعزم عليه أي أحد، دون أن تخشى الوقوع في الحرج.

وبرغم ذلك، يمكن للإنسان أن يحيا دون شاي ولا يمكنه أن يحيا دون ماء. كما أن كوب الماء يمكن أن يتوفر في غياب الشاي، بينما لا يمكن إعداد كوب الشاي في غير وجود الماء.

القهوة والشاي

إذا كان الشاي يرتبط بالطقوس الاجتماعية والمهنية، فإن القهوة ترتبط أكثر بالخبرات الفردية والأعمال الذهنية، لما تحتوي عليه من مادة الكافيين المنبهة. وبالرغم من أن نسبة الكافيين في حبة القهوة لا تتجاوز 0.5 في المئة، إلا أنها تسهم في إضفاء نكهة خاصة على مذاقها. كما أن رائحة البن المميزة تعزى إليها تلك الجاذبية التي لا تقاوم من قبل عشاق القهوة. وبهذا المعنى تشترك حاسة الشم مع حاسة التذوق في خبرة الشرب، خلافا للكثير من المشروبات الساخنة الأخرى. ويرى دافيد بيرمان مؤلف كتاب "فلسفة تذوق القهوة" أن هناك فلسفتين مختلفتين تقفان وراء النكهة المميزة لكل من الشاي والقهوة.

فنكهة الشاي تأتي كمحصلة مجموعة من النكهات المختلفة الداخلة في تكوينه، ما يتسق مع الفلسفة الشرقية التي ترى جميع الكائنات مترابطة، في حين أن نكهة القهوة تأتي من عنصر واحد هو الكافيين، الذي يمارس تأثيره على شارب القهوة بمعزل عن النكهات الأخرى، وهو ما يتسق مع الفلسفة الغربية التي تفصل بين الروح والجسد.

وبنفس المعنى، يرى بيرمان أن الشاي لا جوهر له، لأنه يتكون من مجموعة من المركبات، ولا يوجد عنصر واحد ضروري يمكن أن يمثل الشاي. وعلى العكس من ذلك، تعتبر مادة الكافيين هي العنصر الذي لا تصح القهوة قهوة دونها. والحقيقة أن هذه التفرقة بين الشاي والقهوة غير دقيقة، فلا شك أن للشاي نكهته وهويته المميزة مثل القهوة تماما. فالهوية الحقيقية، في المشروبات، لا تأتي من المشروب في ذاته، لكن من الخبرة الإنسانية للشرب، التي تضيف على التذوق أبعادا أخرى تتجاوز المكونات النباتية للمشروب. ومع ذلك لا ننكر أن في ثقافتنا المحلية الشعبية ما